

مقياس النقد المعاصر:

محاضرة : السيميائية مفهومها ومبادئها

السنة الثالثة- دراسات نقدية -

• ﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾

[آل عمران: 125]

• ﴿يُعَرِّفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾

[الرحمن: 41]

• ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أْثَرِ السُّجُودِ﴾

[الفتح: 29]

المفهوم اللغوي للسيمياء

السيمياء لفظ اشتقّ لغة من الجذر (و س م)، ومن الجذر (سومى) بعد القلب المكاني، ثم انقلبت الواو ياء لتعادل حركة ما قبلها وتجانسها فصارت (سيما)، فمصطلح (سيمياء أو سيماء أو سيما) تعني العلامة، وهي مشتقة من الفعل (سام) الذي هو في الأصل (سوم) مقلوب (وسم) ومنها الوسم وهو أثر الكي، والسمة والوسام: ما وسم به البعير من ضروب الصور، ويقال وسمّ، يسمّ، سِمة، سيمياء، وفي الحديث الشريف ورد على ضعفه قوله صلى الله عليه وسلم «سَوِّمُوا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ سَوِّمَتْ»، وفي رواية «تسوموا»، وأورد الزبيدي في تاج العروس بيتا لأسيد بن عنقاء الفزاري يمدح عميلة حين قاسمه ماله:

غلام رماه الله بالحسن يافعا * له سيمياء لا تشق على البصر

وسوم الفرس تسويما: جعل عليه سيمة أي علامة، وكلها تشير إلى معنى العلامة والأمانة التي تميز صاحبها ويعرف بها.

اقترن لفظ السيمياء عند العرب قديماً بالسحر، وظهر ذلك عند ثلاثة علماء هم جابر بن حيان والرازي وابن سينا، حيث يعمد العالم إلى تركيب بعض الخواص أو مزج الأدهان أو المعادن والمحاليل مع استخدام بعض العبارات والكلمات الخاصة التي لها دور في التأثير على المزيج ليتحول، وفي ذلك يقول ابن سينا: « علم السيميا علم يقصد فيه كيفية تمزيج القوى التي في جواهر العالم الأرضي ليحدث عنها قوة يصدر عنها فعل غريب»، وهو علم قريب للكيمياء أو الخيمياء، والفرق بينهما أن السيمياء لا تستوجب المزج عكس الكيمياء، ومنهم من يراها علماً لأسرار الحروف.

لقد عرف العرب مفردات كثيرة تشير إلى العلامة غير لفظ السيمياء ومن هذه المفردات (الآية- السمة- الأمانة- الرمز- الإشارة- البينة- الرسم- الوشم- الأثر- الشية...).

أما اللفظ الأجنبي نقل إلينا من لفظ *semiologie* عن الفرنسية، و *semiotice* عن الإنجليزية، المشتقان من اللفظة الإغريقية *semion*، وتعني الإشارة والعلامة، ولعل لفظ (*Alchemy*) الأجنبي نقل من اللغة العربية ليعبر بها الغربي عن ذلك العلم الذي عرفه العرب وهو علم يختص بالسوائل والمعادن والمزج بينها.

المفهوم الاصطلاحي للسيمياء عند العرب

المفهوم الاصطلاحي للسيمياء ورد في الكثير من الكتب النقدية، فهو ليس بذلك العلم المستحدث الغريب عن النقد العربي، ومن تلك الإشارات:

✓ كتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت 255 هـ) والذي يرى أن « حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوبة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة»، وهنا يُقر الجاحظ على عكس ما عرف عليه بأولوية المعنى على اللفظ، وهو هنا لا يقصد المعاني المجردة المطروحة في الطريق.

✓ كتاب الحروف للفارابي (ت 339 هـ) الذي يشير إلى علاقة اللفظ بالمعنى، فيقول: « الحروف ليست لها دلالة في ذاتها، إنما قيمتها الدلالية فيما تشير إليه، واللفظ لا يدلُّ على ذاته، إنما يدلُّ على المحتوى الفكري الذي في الذهن »

✓ كتاب معيار العلم لأبي حامد الغزالي (ت 505هـ) الذي يرى أن الأشياء في الوجود لها أربع مراتب، فيقول : «إن للشيء وجوداً في الأعيان، ثم في الأذهان، ثم في الألفاظ، ثم في الكتابة. فالكتابة دالة على اللفظ، واللفظ دال على المعنى الذي في النفس، والذي في النفس هو مثال الوجود في الأعيان ... والوجود في الأعيان والأذهان لا يختلف بالبلاد والأمم، بخلاف الألفاظ والكتابة فإنهما دالتان بالوضع والاصطلاح»، فالعلامة في نظر الغزالي تتألف من أربعة عناصر هي: الوجود العيني - الوجود الذهني - الوجود اللفظي - الوجود الكتابي.

واللغة عند الغزالي صوت دال بتواطؤ، ولم تأت جهود دو سوسير بأكثر مما فصل فيه أبو حامد الغزالي.

✓ كتاب الشفاء لابن سينا (ت 427 هـ) الذي يقول : «إن الإنسان قد أوتي قوة حسية ترتمس فيها صور الأمور الخارجية وتتأدى عنها إلى النفس فترتمس فيها ارتسام ثانيا ثابتا ، وإن غاب عن الحس . فلأمور وجود في الأعيان ووجود في النفس يكوّن آثارا في النفس، ولما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة ... فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت ووفقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معا، ليدل بها على ما في النفس من أثر، ثم وقع اضطرار ثان إلى إعلام الغائبين من الموجودين في الزمان أو من المستقبلين إعلامًا بتدوين ما علم ... فاحتيج إلى ضرب آخر من الإعلام غير النطق، فاخترعت أشكال الكتابة»

✓ كتاب المقدمة لابن خلدون (ت 808 هـ) والذي أشار إلى العلامة اللغوية حين قال: « اعلم أن صناعة الكلام في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تتبع لها وهي الأصل، فالصناعة تكون في الألفاظ، وإنما المعاني في الضمائر، فاللفظ كالقالب للمعني»

مفهوم السيميائية اللغوية عند الغرب

في اللغة الإنجليزية لوحدها نجد أكثر من مصطلح يعبر عن ذلك العلم التأويلي الدلالي، ومن هذه المصطلحات: *seméiology* , *seminasiology* , *significs* , *semiotics*، وكما أشرنا فإن أشهر المصطلحات الغربية التي تعبر عن السيميائية هما مصطلحا: *sémiologie* عن الفرنسية، ومصطلح *semiotics* عن الإنجليزية، وكل المصطلحات تعود إلى المصطلح اليوناني *sémion* والذي يقصد به الدليل،

تعدد المصطلحات الغربية المعبرة عن السيميائية أدى إلى تعدد المصطلحات العربية المترجمة لها، فعند عبد الملك مرتاض السيميائية في كتابه « السيميائية أصولها وقواعدها»، وعند سيزا قاسم و نصر حامد أبو زيد السيميوطيقا في كتابها « مدخل إلى السيميوطيقا»، وعند عبد السلام المسدي علم العلامات في كتابه « الأسلوبية والأسلوب»، وقد أحصى يوسف وغليسي 51 مصطلحا مختلفا نقل إلى النقد العربي عن طريق الترجمة.

مفهوم السيمياء الاصطلاحي عند الغرب

- يعرفها بيير جيرو بأنها: العلم الذي يهتم بدراسة أنظمة العلامات اللغات، وأنظمة الإشارات والتعليمات...

- وعند دي سوسير: ذلك العلم الذي يدرس حياة العلامات من داخل الحياة الإجتماعية ونستطيع - إذن - أن نتصور علما يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي، وهذا العلم يشكل جزءا من علم النفس العام، ونطلق عليه مصطلح « السيميولوجيا » وهو علم يفيدنا موضوعه الجهة التي نُقْتَتص بها الدلالات والمعاني، وما دام هذا العلم لم يوجد بعد فلا نستطيع أن نتنبأ بمصيره، غير أننا نصرح بأنه له الحق في الوجود، وقد تحدد موضوعه بصفة قبلية، وليس علم اللسان إلا جزءا من هذا العلم العام وسيبين لنا هذا العلم ما هو مضمون الإشارات، وأي قوانين تتحكم فيها.

السيميوطيقا عند تشالز ساندر بورس هي دراسة الإشارات والشفرات، أي الأنظمة التي تمكن الكائنات البشرية من فهم الأحداث بوصفها علامات تحمل معنى.

ويعطي بورس مفهومه للسيميوطيقا فيقول: إنني وحسب علمي الرائد أو بالأحرى أول من ارتاد هذا الموضوع المتمثل في تفسير وكشف ما سمته السيميوطيقا أي نظرية الطبيعة الجوهرية والأصناف الأساسية لأي سيميوزيس محتمل، إن هذه السيميوطيقا التي يطلق عليها في موضع آخر المنطق تعرض نفسها كنظرية للدلائل وهذا ما يربطها بمفهوم السيميوزيس الذي يعد على نحو دقيق الخاصية المكونة للدلائل.

وعند الناقد الانجليزي ألبرت أتكين السيميائية هي الدراسة العميقة للنص والغوص إلى المعاني البعيدة وقراءة ما بين السطور ومحاولة اكتشاف الفكرة التي يريد الكاتب أن يوصلها بطريقة غير مباشرة

مفهوم السيميولوجيا عند رولان بارت

السيميولوجيا عند بارت لعبة الدلائل، أي القدرة على إقامة تعدد حقيقي للأشياء في اللغة المستعدة ذاتها، واعتبر رولان بارت السيميولوجيا جزءا من اللسانيات، لأن المعرفة السيميائية لا يمكن أن تكون اليوم سوى نسخة من المعرفة اللسانية... لأن هذه المعرفة يجب أن تطبق على الأقل كمشروع على أشياء غير لسانية، وهو هنا قد عارض رأي أستاذه سوسير، ويعلل بارت ذلك بأن العلامات غير اللغوية - كأنظمة الموضحة والأساطير والطبخ - لا يمكن أن نستوعب دلالاتها إلا باللغة المكتوبة التي نتصورها في أذهاننا .

وقد استلهم بارت عناصر لسانية للدفع بالبحث السيميائي إلى الأمام، بالاعتماد على ثنائيات منهجية لسانية، مثل : اللسان والكلام، الدال والمدلول، المركب والنظام، التقرير والإيحاء.

مرتكزات السيميائية

السيميائية تُبني منهجيا على خطوتين إجرائيتين هما : التفكيك والتكريب قصد إعادة بناء النسق الاتصالي من جديد وتحديد ثوابته البنيوية، لهذا ارتكز التحليل السيميائي على ثلاثة مبادئ أساسية هي:

1- تحليل محايث : نقصد بالتحليل المحايث البحث عن الشروط الداخلية المتحكمة في تكوين الدلالة وإقصاء المحيل الخارجي، وعليه فالمعنى يجب أن ينظر إليه على أنه أثر ناتج عن شبكة من العلاقات الرابطة بين العناصر

2- التحليل البنيوي : يكتسي المعنى وجوده بالاختلاف وفي الاختلاف، ومن ثم فإن إدراك معنى الأقوال والنصوص يفترض وجود نظام مبني من العلاقات، وهذا بدوره يؤدي بنا إلى التسليم بأن عناصر النص، لا دلالة لها إلا عبر شبكة من العلاقات القائمة بينها، ولذا فإن الاهتمام بالعناصر لا يكون إلا من منطلق دخولها في نظام الاختلاف تقييما وبناءا.

يضعنا هذا الأمر أمام تقابل جديد يصف العلاقة بين المعنى باعتباره مادة، وبين الدلالة باعتبارها شكلا لهذا المعنى ومشتقة منه، ولهذا فإن ما تدرسه السيميائيات ليس جواهر مضمونية مكثفية بذاتها، إنها تدرس على النقيض من ذلك أشكالا مضمونية، وهي ما يشير إلى التحققات الممكنة للمادة الأصلية فالجمال على سبيل التمثيل ليس مادة بل يتمظهر لنا في أشكال وصيغ مختلفة يثم من خلالها تجسيدة فكرة الجمال.

3- تحليل الخطاب: إن منحى التحليل السيميائي الأول هو مساءلة الخطاب في شتى تجلياته، وهذا المبدأ أفرز قطبين يجتذبان الاهتمام الإجرائي للنظرية السيميائية، الأول يجسد النص فيما يمثل الثاني السياق، وحاولت الإجراءات التحليلية السيميائية للجمع بين القطبين، ومن ثمة وصل النص بالسياق لتحصيل التفاعلات المولدة للخطاب ضمن المحيط الاجتماعي والثقافي.

مراجع المحاضرة

- سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل .
- سعيد بنكراد، السيميائيات السردية.
- قادة عقاق، السيميائيات العربية - قراءة مقارنة بين منجزات تراثية و طروحات غربية.
- عبدالله خضر حمد، المصطلح النقدي البلاغي عند الفلاسفة المسلمين
- عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير.
- جميل حمداوي، الاتجاهات السيميوطيقية.
- عبد القادر فهيم الشيباني، معالم السيمياء العامة.
- محمد السرغيني، محاضرات في السيميولوجيا.
- يوسف و غليسي، مناهج النقد الأدبي.